نسقيّة الإيمان في شعر الخوارج

الدّكتورة رباح علي•
الدّكتور أزدشير هيثم نصّور••

الملخّص

ترك الشّعر الخوارجيّ أثراً واضحاً في صميم الثّقافة الأمويّة المتشظّية دينيّاً وسياسيّاً واجتماعيّاً، ولاسيّما أنّ أصحابه قد عزفوا على أكثر الأوتار حساسيّة، وهو الوتر الدّينيّ الذي برمجوا معطياته على وفق أيديولوجيّتهم الرّاديكاليّة المتمسّكة بحرفيّة النّصّ الدّينيّ تمسّكاً أتاح لهم تكفير الآخر، وإقصاءه خارج دائرة الإيمان التي خصّوا أنفسهم بها من دون غيرهم من شرائح المجتمع الأمويّ، وأحزابه المتصارعة.

وعليه، حمل النّسق المعلن إيمان الخوارج، وحرصهم على تبنّي القيم الأخلاقيّة الحائمة في فلك الإيمان؛ من صبرٍ، وزهدٍ، وطلبٍ للشّهادة، والجنّةِ الموعودةِ، ولكنّ النّسق المضمر انسلّ في اللّاوعي المؤثّر في الإنتاج الشّعريّ ليمارس سطوته متوشّحاً بوشاح البلاغة والجماليّات الشّعريّة الظّاهرة، فحضرت معطيات التّطرّف والطّغيان والتّهميش لكلّ "آخر" خالف النّهج الخوارجيّ الباحث عن هويّة حملت القلق والجدليّة عبر مسيرة الحزب الخوارجيّ إشكاليّ النّشأة والعقيدة والسّلوك؛ إذ لم يتقبّل أصحابه أيّ "آخر" محوّلين اختلافهم معه إلى خلاف، جاعلين هذا الآخر خصماً مباشراً، تحت شعار: إذا لم تكن معنا فأنت خصمنا، لاغين قيمة التّسامح من نهجهم الفكريّ وسلوكهم الحياتيّ.

الكلمات المفتاحيّة: الخوارج، العصر الأمويّ، النّسق المضمر، الإيمان، التّكفير، الإقصاء.

المقدمة :

• المُدرّسة في قسم اللّغة العربيّة- جامعة تشرين.
•• دكتوراه في اللّغة العربيّة وآدابها ـ كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ـ جامعة تشرين ـ اللّاذقية ـ سورية.

احتلّ العصر الأمويّ موقعاً آسراً في صفحات التّاريخ السّياسيّ والفكريّ العربيّ، نظراً للجدل الذي ولّدَتهُ صراعات هذا العصر الذي أحيا قيماً جاهليّة حاول الإسلام اجتثاثها؛ إذ عادت العصبيّة ولكن بمحمولات فكريّة جديدة أفرزتها الظّروف السّوسيوتاريخية، ففي حين أحيا الأمويّون العصبيّات القبليّة والسّياسيّة، تمسّك الشّيعة بالعترة النّبويّة، لينحاز الزّبيريّون إلى العصبيّة القرشيّة. ووسط هذه الصّراعات الفكريّة نهض الخوارج في النّسق المعلن ليرفعوا راية الأحقيّة لأيّ مسلمٍ، التزم حرفيّة النّصّ القرآنيّ، وتبنّى منطلقاتهم، بتولّي شؤون المسلمين، في إضمارٍ لعصبيّة دينيّة ضيّقة لم تعترف برابطة الدّم والقبيلة والولاء السّياسيّ.

إذن، كان الخوارج لاعباً أساسيّاً في ضياع بوصلة الأنموذج الإسلاميّ الأمويّ الموحَّد الذي يشكّل المرجعيّة الفكريّة للوسط الاجتماعيّ الأمويّ؛ ذلك أنّ كلّ حزبٍ راح يرسم مثله الأعلى المختلف أيديولوجيّاً مع باقي الأحزاب، وهذا ما أمعن في ضياع الهويّة الأمويّة الجامعة، فقد عاشت الأحزاب المتنافسة على السّاحة الأمويّة فترات من القوّة والسّيطرة، خلّفها التمسّك المطلق بالمبادئ والقيم، التي رسمها كل حزبٍ لأتباعهِ، قبل أن يصطدم بغيره من الخصوم السّياسيّين، الذين –ربّما– فاقوه عدّة وعتاداً، وإيماناً بمثلهم العليا، وهذا ما أدّى إلى فقدان بعض الأحزاب التّطلّعات –بصرف النّظر عن ظروف هذا الفقد– فراحت تغرق في الواقع، وبذلك حكمت على نفسها بالاندثار[1] الذي كان المصير الحتميّ لحالة ضياع الهويّة وتخبّطها تحت رحى الخصومات، والمعارك الدّمويّة عصرئذٍ.

لقد خاضَ الشّعر الأمويّ –كما خاض الشّعر العربيّ عبر العصور– معارك أدبيّة شرسة إلى جانب المعارك السّياسيّة والعسكريّة، فظهر أدبٌ رائع للمعتزلة والخوارج، وأدبٌ باكٍ حزين رائع وصف ما تعرّض له العلويّون وما قاسوه من طغيان طائفيّ ومذهبيّ؛ فكتبوا عن الحجّاج وطغيانه، وعن استشهاد الحسين، ومأساته الخالدة، وتغنّوا بفضائل الرّجال الأطهار[2]. وبين هذا وذاك كان أصحاب كلّ حزبٍ يلفون الحقَّ والحقيقةَ والصّوابَ عمادَ أدبيّاتهم من دون أيّ خصمٍ آخر.

وعليه، استمال الخوارج مثل غيرهم من الأحزاب الأمويّة الشّعراءَ والخطباءَ، ليكونوا سلاحهم الإعلاميّ في تثمين القيم الحزبيّة، ومواجهة الخصوم السّياسيّين، ولاسيّما بعد رفعهم شعار الإيمان المطلق بحرفيّة النّصّ القرآنيّ مولِّدين بذلك نسقيّة مزدوجةً بين معلنٍ من القيم السّامية التي صوّرتهم أبطالاً مضحّين، ومضمرٍ حملَ عيوباً في أشعارهم المعبّرة عن أيديولوجيّتهم الجدليّة.

أهمّيّة البحث:

[1] ينظر: زرنه جي، عبد اللّطيف، المثل العليا والواقع، مجلة المعرفة، العدد376، السنة الثالثة والثلاثون، كانون الثاني 1995م، ص13.
[2] ينظر: الكيلانيّ، د. نجيب، الإسلاميّة والمذاهب الأدبيّة، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، 1987م، ص86.

تنبع أهمّيّة البحث من خوضه في النّسقيّة الثّقافيّة التي تحيل الباحث على خفايا اللّاوعي المسهم في نسج خيوط الثّقافة تأثيراً وتأثّراً، وذلك بعد تناول شعر الخوارج، بوصفه مادّة شعريّة جدليّة في صميم الأدب العربيّ القديم الذي يستحقّ مزيداً من الدّراسات الثّقافيّة السّابرة غناه الفكريّ والفنّيّ والثّقافيّ.

أهداف البحث:

يروم الباحث تعرية الجماليّات النّاظمة للبناء الشّعريّ؛ الفكريّ والفنّيّ. وهنا يحضر النّسق المضمر• الذي تحرّى الباحث كشف خيوطه في شعر الخوارج القائم على نسقٍ معلنٍ حملَ قيم الفتوّة والبطولة والزّهد والصّبر والإيمان، ولكن على أنقاضٍ من التّعصّب الدّينيّ، والتّطرّف، وإقصاء الآخر، وتكفيره، واستباحة محرّماته وسط قلقٍ أيديولوجيّ نظمَ الفكر الشّعريّ الخوارجيّ.

منهجيّة البحث:

استندت الدّراسة إلى إجراءات النّقد الثّقافيّ واستراتيجيّاته القائمة على تتبّع النّسق المضمر، وخفاياه الدّلاليّة من خلال رصد الجمل الثّقافيّة النّوعيّة، والبؤر الثّقافيّة المؤسّسة للدّلالات المضمرة والمسكوت عنها.

الدّراسة:

لا غرو في اضطرام أوار الصّراعات في العصر الأمويّ في مراحله الأولى، ولذلك لم يعرف الحكم الأمويّ بادئ ذي بدء كثيراً من الاستقرار وسط المنافسة من الشّيعة والزّبيريّين والخوارج. ولعلّ الخوارج كانوا أكثر راديكاليّة في التّعامل مع حرفيّة النّصّ القرآنيّ وتطويع فهمهم له على وفق مصالحهم السّياسيّة التي حاولوا بلوغها. فقد رفعوا شعارَ ﴿إِنِ الحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1]، ولاسيّما أوائلهم –المحكمة الأولى– الألى فاخروا بمشاركتهم في التّخلّص من عثمان (رض) ثمّ انقلبوا على عليّ (رض) قائلين: ((لا حكمَ إلّا لله سبحانه))[2]. وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على مضمرٍ مفاده تخبّط ميولهم وعجزهم عن اتّخاذ موقفٍ واضح وسط الفوضى الفكريّة إبّان معركة "صفّين" و"الخروج" إلى "حروراء" واعتصام من أُطلِقَ عليهم "الحروريّة" فيها[3]. هذا إن لم نقل: إنّ النّسق

• ((المقصود المصطلحيّ لمفهوم "النّسق المضمر/ النّسق الثّقافيّ"، والمقصود هو أنّ كلّ خطاب يحمل نسقين أحدهما ظاهر واعٍ "ثقافيّ" والآخر مضمر "نسقيّ" وهذا يشمل كلّ أنواع الخطابات؛ الأدبيّ منها وغير الأدبيّ، غير أنّه في الأدبيّ أخطر لأنّه يتقنّع بالجماليّ والبلاغيّ لتمرير نفسه وتمكين فعله في التّكوين الثّقافيّ للأمّة)). **المرجع:** الخليل، د.سمير، دليل مصطلحات الدّراسات الثّقافيّة والنّقد الثّقافيّ– إضاءة توثيقيّة للمفاهيم الثّقافيّة المتداولة، مراجعة وتعليق: د.سمير الشّيخ، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د–ط)، (د–ت). ص293.

[1] يوسف/40.

[2] ينظر: الطّبريّ، أبو جعفر محمّد بن جرير، تاريخ الرّسل والملوك، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2، 1971م،57/5.

[3] ينظر: بيضون، د. إبراهيم، ملامح التّيّارات السّياسيّة في القرن الأوّل الهجريّ، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1979م، ص132–133.

المضمر في هذه الحادثة الثّقافيّة حملَ نفاقاً براغماتيّاً؛ إذ لم يقف أصحابه مع أيّ من الطّرفَين المتنازعَين، بل شكّلوا طرفاً ثالثاً يناوئ سابقَيه، بدليل انقسامهم على أنفسهم لاحقاً إلى عشرين فرقة[1]، ممّا يؤكّد نيّاتهم المبطّنة التي إن لم يحملها الوعي المعلن فقد حملها اللّاوعي المضمر؛ فهم قبل انقسامهم وتشعّبهم لم يؤيّدوا "الإمام" الدّينيّ وخرجوا عليه، كما أنّهم لم يحالفوا "الخليفة" السّياسيّ•، بل انتهجوا نهجاً مستقلّاً لم يتركوا من خلاله أيّ مجال إلى كلمة سواء مع أحدٍ من الأحزاب المتصارعة، فقد رفضوا أيضاً التّوجّه الزّبيريّ المنادي بـ "قرشيّة" الحاكم، عندما جوّزوا الحكمَ لأيّ مسلمٍ يمتلك أهليّة الحكم، قبل أن يتمادوا في عصبيّتهم الدّينيّة إلى حدٍّ جعلهم يكفّرون كلّ من عارضهم حتّى لم يسلم منهم أنصارهم سواء من فرقتهم أم من الفِرق الخوارجيّة الأخرى، فقد بلغوا مبلغاً لم يُسبَق؛ إذ أصبح "الخروج" على القائد ديدنَهم، كما فعلَ الأزارقة بقطريّ بن الفجاءة، مثلاً، بعدما خرجوا عليه وكفّروه[2].

تُضمِر هذه العصبيّة العمياء عدمَ استقرار أيديولوجيّ أو فكريّ. ولعلّ الباحث لا يجانب الصّواب إذا ارتأى أنّ الحركة الخوارجيّة منطلق كلّ حركة جدليّة راديكاليّة، مهما أظهر النّسق في معلناته غير ذلك.

التزم الخوارج حرفيّةَ النّصّ الدّينيّ، وعلى ذلك ثمّنوا قيم الشّجاعة ومبادئ البطولة، وجعلوها وسيلةً لبلوغ أسمى غاياتهم "الشّهادة والجنّة". ولذلك أصبح مبدأ "الجهاد" مبدأ واسماً لنهج الخوارج، ولا يجد متابعُ أشعارِهم مشقّةً في تقصّي ذلك. وعلى هذه المنطلقات وطّأ الخوارج لحزبهم أرضيّةً صلبةً على الصّعد الاجتماعيّة والدّينيّة والعسكريّة؛ فعلى المستوى الاجتماعيّ تحلّوا بسلوكيّات الزّهد والتّقشّف، وعلى المستوى الأيديولوجيّ العقائديّ عادوا إلى حرفيّة الخطاب القرآنيّ، أمّا على المستوى العسكريّ فقد أملت عليهم منطلقاتهم الدّينيّة وسلوكيّاتهم الاجتماعيّة شراسةً قتاليّةً وصبراً عظيماً في ساحات الوغى.

- **<u>بين نسق الإيمان والعصبيّة:</u>**

لا مندوحة من أنّ المشاعر العاطفيّة لها ركن ركين في ميادين الولاء والانتماء، فالعاطفة عنصر رئيس في معادلة الإيمان والتّديّن، فكيف إذا أُضِيفَت إليها الانفعالات الجماهيريّة الجمعيّة التي تُثار في لحظة تستوجب

[1] ينظر: البغداديّ، عبد القاهر (– 429هـ)، الفَرق بين الفِرق، تح: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، مطبعة المدنيّ– القاهرة (د – ت)، ط2، ص72.

• **لعلّ البحث لا يجانب الصّواب إذا ذهب إلى عدّ نواتهم الأيديولوجيّة قد بدأت بالخروج على عثمان بادئ ذي بدء**؛ إذ يسجّل التّاريخ أنّ نفراً منهم صاروا رؤوسَ الخوارج لاحقاً بعد تبلور حركتهم واشتداد عودها إبّان موقعة "صفّين". **ينظر:** الطّبريّ، أبو جعفر محمّد بن جرير، تاريخ الرّسل والملوك، 365/4–390.

[2] ينظر: القاضي، د. النعمان، الفرق الإسلاميّة في الشّعر الأمويّ، دار المعارف، مصر، (د–ت)، (د–ت)، ص180 ،188.

اتّخاذ موقف آنيّ من الإنسان الذي قد تأخذه صيحات من حوله على نحو يغلّب فيه الجانب الانفعاليّ الشّعوريّ على الجانب العقليّ المنطقيّ؟!

لعلّ نهج الخوارج خير مثال على الشّحن العاطفيّ الذي قد يُغيّب العقل في لحظة تمرّد جمعيّ حاكَه بعض متذبذبي الولاء وخدعوا العامّة بشعارات رنّانة تدغدغ العاطفة الدّينيّة الفتيّة التي كانت في طور النّمو على نحو أشبه بالفتية اليافعين في سنّ المراهقة، وهم يغلّبون عواطفهم وملكاتهم الغرائزيّة على حساب العقل والمنطق. ولذلك استطاع أوائل الخوارج الاستحواذ على وعي أنصارهم عندما رفعوا شعار النّقل مغيّبين دور العقل.

أثّرت لعبة العواطف في معادلة الإيمان عند الخوارج على نحوٍ لافتٍ، حتّى غدا خروجهم أشبه بحالة من الصّعلكة المقنّعة•؛ صعلكة أيديولوجيّة قالوا فيها حقّاً إنّما أرادوا الباطل. فعلى المستوى الجمعيّ أحدثوا شرخاً جديداً في صفوف المسلمين المنقسمين على أنفسهم أساساً. والخطير في أمرهم أنّهم تطرّفوا في تطبيق معطيات "إيمانهم" على نحو جعلهم بغاة ظالمين. ولذا كانت صعلكتهم هدّامةً لا بنّاءةً كما ارتأى الصّعاليك التّقليديّون قبل خروج هذه الفئة التي غاب عن أحكامها منطق الدّين والتّفكير من دون أدنى وعي منهم، بعد أن غلّفت بصرَهم وبصيرتَهم غشاوةٌ ظنّوا معها أنّهم جاؤوا الدّين بحركة جديدة تصحّح مساره من جديد، وكأنّهم اجتهدوا فأصابوا فشعروا بمجدٍ استثنائيّ لم يسبقهم إليه أحد على امتداد المشهد الدّينيّ عصرئذٍ.

ظنّ الخوارج أنّهم أبدعوا وأصابوا، ولكن حقيقة الأمر أنّهم ابتدعوا فأخفقوا، وأخذتهم العصبيّة الدّينيّة بدل العصبيّة القبليّة، يقول عيسى بن فاتك الخطي يوم آسك[1]:

فَلَمَّا أَصْبَحُوا صَلَّوا وَقَامُـوا إِلَى الجُرْدِ العِتَـاقِ مُسَوّمِينا

أَأَلْفَا مُؤْمِنٍ فِيْمَا زَعَمْتُـــم وَيَهْزِمُهُـــم بِـآسكَ أَرْبَعُونا

كَذَبْتُم لَيسَ ذَاكَ كَمَا زَعَمْتُم وَلَكِنَّ الخَـــوَارِجَ مُؤْمِنُونا

هُمُ الفِئَةُ القَلِيلَةُ غَيْرَ شَـكٍّ عَلَى الفِئَةِ الكَثِيرَةِ يُنْصَرُونا

حرص شعراء الخوارج دائماً على إبراز إيمانهم الصّادق المرافق لدحض مزاعم الخصوم، ولذا شكّل نسق الإيمان غنيمةً تنافس عليها المتنافسون، لأنّه كان الأوقع تأثيراً والأكثر قدرةً على استمالة الأتباع. وعلى هذا راح

• لا يروم الباحث نعتَ الصّعاليك بالسّلبيّة المطلقة، فمنهم من عاش بكرامةٍ وأبى الظّلم.

[1] عبّاس، د. إحسان، شعر الخوارج، دار الثّقافة، بيروت، ط2، 1974م، ص54–55. الجرد العتاق: نجائب الخيل. وآسك: موضع ببلاد فارس، وهناك هزم بلال بن مرداس... (**ينظر**: البكريّ الأندلسيّ، الوزير الفقيه أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ت487هـ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تح: جمال طلبة، دار الكتب العلميّة، بيروت، المجلّد الأوّل 1–2، ط1، 1998م، ص81). الجرد العتاق: الخيل الكريمة.

شعراء الخوارج يمعنون في استحضار المعاني الإسلاميّة بأسلوب الحِجاج تارةً وتفنيد مثالب الخصوم تارةً أخرى، هادفين من وراء ذلك إلى الإقناع. وها هو ذا عيسى بن فاتك الخوارجيّ يصوّر صحبه المؤمنين الذين يصبحون إلى الصّلاة ثمّ إلى الجهاد الذي شكّل نسقيّة خوارجيّة ديالكتيكيّة بعد أن اتّخذه الخوارج شعاراً ومبدأ رئيساً في معتقداتهم، وصولاً إلى الجملة الثّقافيّة النّوعيّة "ولكنّ الخوارج مؤمنون" التي أعلنت في النّسق إيمان أصحاب الشّاعر الذي وظّفها بوصفها ردّاً ودفاعاً عن جماعته في وجه الخصوم.

تضمر هذه الجملة الثّقافيّة المتآزرة معنويّاً مع بؤر ثقافيّة؛ من مثل: "كذبتم، زعمتم" والثّنائيّة الضّدّيّة "الفئة القليلة/ الفئة الكثيرة" عصبيّةً مُقصِيةً للآخر. والخطير في الأمر هو أنّ المُتنازَع عليه في هذه النّسقيّةِ قضيّةٌ جوهريّةٌ حاسمةٌ "الإيمان"؛ فمن أعطى الشّاعرَ الحقَّ في أن يوزّع نقاط الإيمان، أو يُقصيَ غيره خارج دائرة الإيمان الذي تخفيه القلوب ولا يعلمه إلّا الله تعالى؟

ولمّا كان الجهاد ديدنَ الخوارجيّ ووسيلتَه كانت الجنّة غايتَه وهدفَه، وهذا ما صرّح به "أبو بلال، مرداس بن أدية"، عندما قال[1]:

مَا إِنْ نُبَالِي إِذَا أَرْوَاحُنَا خَرَجَـــتْ مَاذَا فَعَلْتُمْ بِأَجْسَادٍ وَأَوْصَـــــالِ

نَرجُو الجِنَانَ إِذَا صَارَتْ جَمَاجِمُنَـا تَحْتَ العَجَاجِ كَمِثْلِ الحَنْظَلِ البَالِي

نَفْسِي ظَنُونٌ وَلَسْتُ الدَّهْرَ آمَنُـهَا مِنْ بَعْدِ كَعْبٍ وَطَوَّافٍ وَغَسَّـــالِ

مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ هَذَا الدِّيْنِ كَانَ لَهُ وِدِّيْ وَشَارَكْتُهُ فِي تَالِدِ المَـــالِ

اللهُ يَعْلَمُ أَنِّيْ لَا أُحِبُّهُـــــــــمُ إِلَّا لِوَجْهِكَ دُوْنَ العَمِّ وَالخَـــالِ

يلغي الشّاعر عصبيّته الدّمويّة رافعاً راية العصبيّة الدّينيّة التي جعلته يحبّ أصحابَه من الخوارج ويفضّلهم على صلة الدّم طمعاً بأَجرِ الله والجنّة الموعودة، وهذا ما دفعه، ضمن ثنائيّة "الحسّيّ والمجرّد"، إلى ازدراء الأجساد والجماجم الفانية راجياً الجنان، ولاسيّما أنّه جعل مالَه معبّداً لخدمة الدّين والعقيدة.

يضمر النّسق في هذه الحادثة الثّقافيّة عصبيّةً أملت على الشّاعر قطعَ رابطة الودّ مع أقرب النّاس إليه "العمّ والخال" إذا ما اتّخذا منحى مغايراً لتوجّهاته، إلى أن بلغت به هذه العصبيّة حدّاً جعله يقزّم معايير الإيمان على مقاسه؛ فهو وصحبه وأجسادهم وأرواحهم فداءٌ لعقيدته القائمة على الجهاد، ولكن الجهاد ضدّ من؟ ليس ضدّ المشركين، بل ضدّ من ينطق بالشّهادتين؛ فهل قتال المسلمِ أخاه المسلمَ جهادٌ؟!

[1] عبّاس، د. إحسان، شعر الخوارج، ص50. العجاج: الغبار.

لقد تطوَّر الوعي الجمعيّ في المجتمع الإسلاميّ الجديد مع تطوُّر الحياة الإسلاميّة، وهذا ما انعكس على المضمونات الفكريّة والسلوكيّات الاجتماعيّة التي حاولت تغييب عنصر العصبيّة، ولاسيّما في بدايات الدولة الإسلاميّة الفتيّة قبل الفتن والتحزّبات، فحلّ مفهوم الإسلام والمسلمين بدل المفهوم القبليّ الفئويّ الطّبقيّ الجاهليّ، ومن هنا بدأت تتغيّر بعض المعطيات المتعلّقة بالعصبية القبليّة التي تبنّى الخوارج تحوير مفهومها إلى عصبيّة دينيّة أظهرت في النّسق المعلن الانتقال من الفخر بالقوم إلى فخر بالدّين والإسلام والأمّة الدّينيّة، ولكنّها أضمرت الانغلاق على الذّات الخوارجيّة وإقصاء كلّ مخالفٍ لفكرها ومنطلقاتها، في انحرافٍ عن سموّ المبادئ الإسلاميّة التي فاضلت بين النّاس بالتّقوى لا الأقوى، قبل أن يخصّ الخوارج مثلهم الأعلى بالتّقوى الخوارجيّة الضّيّقة لا التّقوى الإسلاميّة العامّة.

لقد أضمرت أنساق الشّعريّ الخوارجيّ دوراً سلبيّاً أسهم في تحوير منظومة القيم الإسلاميّة، فزُرِعَت نوى التّطرّف والتّكفير في الجسد الإسلاميّ الفتيّ خدمةً لمآربهم وتوجّهاتهم القيميّة الرّاديكاليّة؛ فأين قيم السّماحة والتّسامح الدّينيّ؟ وأين أخوّة الدّين <<إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ>>[1]؟ وأين... وأين؟!

أسّست العصبيّة الخوارجيّة لبرمجة قيم التّقوى والأنموذج الإسلاميّ بناءً على معطيات لم تمتح من رحابة النّصّ القرآنيّ وامتداده الفكريّ والزّمكانيّ، وهذا ما أسّس للأنموذج الخوارجيّ الذي أعلن القطيعة مع العصبيّة القبليّة السّالفة، ولكنّه فتح الباب على عصبيّة دينيّة أشدّ وطأة من تلك التي لم تكد تطوى صفحتها بعد.

- **<u>بين نسق الإيمان والقيمة:</u>**

أسهم شعر الحزب الخوارجيّ المتطرّف في ضرب منظومة القيم الدّينيّة، ومن ثَمّ الاجتماعيّة والسّياسيّة، فقد أعاد شعراء الخوارج توظيف القيم خدمةً لمصالحهم؛ إذ دفعتهم عصبيّتهم العمياء إلى تبنّي الإيمان واحتكاره مُجرِّدين غيرهم منه، دافعين الآخر إلى الرّد عليهم بأسلوبهم، محرّضين الجمهورَ على تعويد اللّاوعي على هذا الخلل القيميّ بالتّداعي الزّمنيّ والنّفسيّ. فالشّاعر ((ليس نرجسيّاً بالمعنى المألوف، أو بالمعنى العاديّ للكلمة، وذلك لأنّه لا يغرم بذاته ولا يصنع من نفسه بطلاً كما يصنع الحالم باليقظة، كما أنّه يختلف عن الزّعيم وإن اتّفق معه في الرّغبة في كسب الجمهور إليه، لأنّه يحاول –كالزّعيم– أن يستغلّ عواطف جمهوره لغرض شخصيّ. إنّ نرجسيّة الفنّان نرجسيّة محوّرة أو منقولة، أو لنقل إنّها نرجسيّة ملغاة يعوّضه عنها العمل الفنّيّ بنرجسيّة

[1] الحجرات/ 10.

أرحب))[1]. لقد راح الشّاعر الخوارجيّ يشحن القاعدة الجماهيريّة بسموم أرخت بظلالها على اللّاوعي الجمعيّ لأتباعهم ولكلّ من ستسوّل له نفسه تحوير المعطيات الدّينيّة لخدمة المآرب الموقفيّة العاجلة أو المستدامة الآجلة.

خصّ الشّاعر الخوارجيّ نفسه وجماعته بقيم الجهاد وطلب الجنّة "مَا إِنْ نُبَالِي إِذَا أَرْوَاحُنَا خَرَجَتْ، نرجو الجنان"، فأسهم في ضياع مؤشّر بوصلة الصّدق، ليُصدَّق الأقوى بلاغيّاً، مؤسِّساً بذلك لانزياح منظومة القيم الدّينيّة بفعل سطوة منظومة القيم الشّعريّة التي أظهرت الشّاعر بثوبِ موزّعِ القيم ومانحها، في ظلّ مُضْمَرٍ نسقيّ مسكوت عنه، وهو تجاوز حدود التّابوهات الاجتماعيّة والدّينيّة تحديداً. بينما بقي المعلن النّسقيّ وفيّاً –في كثير من الأحيان– لتقاليد القصيدة العربيّة، فأبو بلال رثى أصحابه بصدقٍ فنّيّ حمله معلنُ النّسقِ، ولكنّ مضمره أخفى عدم مبالاته بهم، لأنّ الله –على زعم الشّاعر– سيحتسبهم شهداء، ولذلك فهم أرقامٌ فانية في سبيل المذهب الخوارجيّ القلق، بدليل –كما ذكرنا آنفاً– تحزّب الخوارج إلى فرقٍ وفرق، وقتل الأزارقة زعيمَهم "قطريّ بن الفجاءة" بعد الخروج عليه، وبذلك يكونون قد خرجوا مرّتين؛ الأولى على عليّ (ع) والثّانية على زعيمهم الخوارجيّ، وهذا ما يشي بعدم ثبات المبدأ المعنويّ قبل الخوض في المصالح الضّيّقة لأرباب كلّ فرقة. وهذا –أيضاً– ما كان يحول بينهم وبين جني ثمار النّصر في معظم الأحيان[2].وعليه، فإنّ الحزب الخوارجيّ حزبٌ قلقٌ في النّشأة والمبادئ والقيم، ولذا فإنّ الوجود القلق ولّدَ قلقاً عبر المسيرة الجدليّة لهذا الحزب.

تعامل الشّاعر الخوارجيّ بكثرة مع غرض الرّثاء المتناسب فنّيّاً مع المضمونات المعنويّة ومنظومة القيم التي تبنّاها على الرّغم من تذبذب تلك القيم وتحويرها.

لقد فرضَ تبنّي نسق الإيمان رفضَ بعض القيم من دون غيرها. وعلى هذا ارتقت قيمة الصّبر إلى أعلى المستويات عند الخوارجيّ الذي يصبر على الحروب، ويصبر على مواجهة الخصوم طامعاً في الآخرة والجنّة التي وعد نفسَه بها بعد إطلاق راية الجهاد. وعليه، شكّل نسق الإيمان وسيلةً معلنةً أضمرت أنساقاً من الإقصاء والتّكفير للآخر، سعياً إلى غاية هي الجنّة: (الإيمان ⇐ الجهاد ⇐ الشّهادة ⇐ الجنّة)

يقول كعب بن عميرة الخوارجيّ راثياً رفاقه، متمنّياً مصيرهم[3]:

لَقَدْ فَازَ إِخْوَانِي فَنَـالُوا الّتِي بِهَا نَجَوا مِنْ عَذَابٍ دَائِمٍ لَا يُفَتَّرُ

أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ أَعِيْـشَ خِلَافَهُمْ وَفِي اللهِ لِيْ عِزٌّ وَحِرْزٌ وَمَنْصَرُ

[1] إسماعيل، عزّ الدّين، التّفسير النّفسيّ للأدب، مكتبة غريب، القاهرة، ط4، (د–ت)، ص28.

[2] ينظر: النّجّار، عامر، الخوارج عقيدة وفكراً وفلسفة، مكتبة المقدسيّ، بيروت، ط1، 1996م، ص207.

[3] عبّاس، د. إحسان، شعر الخوارج، ص60. خلافهم: بعدهم. يهبر: يقطع اللّحم قطعاً كباراً.

وَيَا رَبِّ هَـــبْ لِيْ ضَرْبَةً بِمُـهَنَّدٍ حُسَامٍ إِذَا لَاقَى الضَّرِيْبَةَ يَهْبُرُ

فَقَدْ طَالَ عَيْشِيَ فِي الضَّلَالِ وَأَهْلِهِ أَخَافُ الّتِي يَخْشَى التَّقِيُّ وَيَحْذَرُ

أَخَافُ صُرُوْفَ الدَّهْرِ إِنِّيْ رَأَيْتُـهَا تَرُوْحُ عَلَى هَذَا الأَنَـامِ وَتُبْكِرُ

ويقول كعب أيضاً[1]:

هَذَا عِتَادِي فِي الحُرُوْبِ وَإِنَّنِيْ لَآمُلُ أَنْ أَلْقَى المَنِيَّةَ صَابِرَا

وَبِاللَّهِ حَوْلِي وَاحْتِيَالِي وَقُوَّتِي إِذَا لَقِحَتْ حَرْبٌ تُشِيْبُ الحَوَادِرَا

ويقول أبو بلال مرداس بن أديّة[2]:

إِلهِيَ هَبْ لِي زُلْفَةً وَوَسِـــــيْلَةً إِلَيْكَ فَإِنِّي قَدْ سَئِـمْتُ مِنَ الدَّهْرِ

فَيَا رَبِّ لَا تُسْلِمْ وُلَاتَـــكَ لِلرَّدَى وَأَيِّدْهُمُ يَا رَبِّ بِالنَّصْـــرِ وَالصَّـــبْرِ

وَيَسِّرْ لَنَا خَيْـــــراً وَلَا تَحْرِمَنَّنَا لِقَاءَ ذَوِي الإِلْحَـادِ فِيْ عَـدَدٍ دَثْرِ

إِذَا جَشَأَتْ نَفْسُ الجَبَانِ وَهَلَّلَتْ صَبَرْنَا وَلَوْ كَانَ القِيَامُ عَلَى الجَمْرِ

آمنَ الخوارجيّ بعظمة السّعي إلى الشّهادة، لأنّها –من وجهة نظره– سبيل الجنّة والخلاص من إفك الحياة الفانية، وهذا ما وشت به بؤر ثقافيّة من مثل: " لقد فاز إخواني، ويا ربّ هب لي ضربة بمهنّدٍ"، ولذا تسلّح بقيمة الصّبر "فقد طال عيشي في الضّلال، وإنّي لآمل أن ألقى المنيّة صابراً، وأيّدهم يا ربّ بالنّصر والصّبر، صبرنا" التي ماشت نسقَ الإيمان الخوارجيّ ليشكّلا معاً هويّة أيديولوجيّة لأصحاب هذا المبدأ الذين آمنوا بالجهاد والشّهادة مضمرين القصاصَ من الآخر؛ كلّ آخر خالف توجّهاتهم، فكفّروه ونالوا منه أنّى استطاعوا إلى ذلك سبيلاً بمختلف وسائل التّهميش والإقصاء والإفناء.

لا يلحظ المتابع في معظم أشعار الخوارج تلك الصّور البيانيّة الآسرة والعناصر البديعيّة المؤثّرة في السّبك الفنّيّ، بل إنّه يقع على معلومات توثّق معاركهم ومواقفهم ومصير أصحابهم وخصومهم في قالب شعريّ لم يكن غايةً في ذاته، بل كان وسيلةً حماسيّة تأثيريّة لمعت من خلالها وظيفتا اللّغة الإفهاميّة والانفعاليّة. وعليه،

[1] المرجع السّابق نفسه، ص61. الحوادر: جمع حادر، الغلام الممتلئ الشّباب.

[2] المرجع السّابق نفسه، ص51– 52. الزّلفة: القربة والمنزلة. الدّثر: الكثير.

يمكن القول: إنّ شعر الخوارج شكّل مادّة تاريخيّة أكثر من كونه مادّة فنّيّة، ولاسيّما أنّ الهويّة الخوارجيّة قامت على تساؤلات هويّاتيّة أكثر الخوارج من الخوض فيها، وعلى رأسها سؤال المصير، والانتماء الدّينيّ والسّياسيّ. وهذا ما ولّدَ بالضّرورة تبنّي كلّ قيمة من شأنها إظهار أصحابها بثوب الإيمان المطلق، ولذا سمت قيمة الزّهد في أشعارهم، ليصوّر الشّاعر نفسَه أو بطلَه الخوارجيّ بثوب العابد الزّاهد المؤمن المترفّع عن الدّنيا، يقول قطريّ بن الفجاءة المازنيّ معلياً قيمة الزّهد في أدبيّاته الخوارجيّة[1]:

لَعَمْرُكَ إِنّي فِي الحَيَاةِ لَزَاهِـــدٌ وَفِـي العَيْشِ مَا لَمْ أَلْقَ أُمَّ حَكِيمِ

فَلَو شَهِدَتْنِي يَومَ دولابَ أَبْصَرَتْ طِعَانَ فَتًى فِي الحَرْبِ غَيْر ذَمِيْمِ

وَضَارِبَةٍ خَدَّاً كَرِيْمَاً عَلَـــى فَتَىً أَغَـــــرَّ* نَجِيْبِ الأُمَّهَاتِ كَرِيْمِ

فَلَو شَهِدَتْنَا يَوْمَ ذَاكَ وَخَـــيْلُنا تُبِيْحُ مِـــــنَ الكُفَّارِ كُلَّ حَرِيْمِ

رَأَتْ فِتْيَةً بَاعُوا الإِلَهَ نُفُوْسَـــهُم بِجَنَّاتِ عَـــــدْنٍ عِنْدَهُ وَنَعِيْمِ

حضرَ الخوارجيّ الزّاهد المضحّي بالماديات طمعاً في المعنويات التي تكفل الخلود المعنويّ للبطل المضحّي على المستوى الدّنيويّ والنّعيم الأزليّ الموعود في الجنّة الخالدة، وهذا ما توضّحه الأبيات السابقة؛ فالشاعر وصحبه "فتية باعوا الإله نفوسهم" في سبيل الغاية العظمى، وهي الجنة التي جعلته يعزف عن التمتّع بما في الدّنيا، حتى النّعم المحلّلة[2]، فظهر بثوب المثل الأعلى الذي يُنكر جسده الفاني أمام روحه الباقية واضعاً نفسه في أعلى درجات الزهد وإيثار الآخرة على الدّنيا.

لا تخفى في الأبيات صورة الأنموذج الزّاهد الذي امتلك حكمةً وظّفها في اتجاهٍ أحاديّ القطب، وهو الإيمان بالقضاء والقدر، وبأنّ الموت حقٌّ أمام نفسٍ زاهدةٍ تعي أنَّ هدفها السّياسيّ قد يكون بعيد المنال، لذلك فإنّ الشّهادة قد تكون أقرب إليها، ولذلك فإنّها في المعلن تضحّي وتزهد لتحقّق في المضمر المكاسب كيفما دارت الأمور؛ فإذا ما انتصرت نالت مرادها الدّنيويّ، وإذا ما أخفقت فستموت مقتنعةً بأنّها نالت الشّهادة والجنّة. ولذا حرص الشّاعر على إظهار نفسه في المعلن النّسقيّ بطلاً صعتريّاً لم يرتدع عن توظيف الجماعة بعد أن أسهب في تلميع صورة "أناه" التي قدّمت لنا –في ثنائيّة (أنا/نحن) الخوارجيّة– بطلاً فارساً، شجاعاً، زاهداً، كريماً، قبل

[1] عبّاس، د. إحسان، شعر الخوارج، ص106–107. أم حكيم: امرأة خوارجيّة مقاتلة. *لو صرَف كلمة أغرّ" لكان الوزن أصحّ. ولكن هكذا ورد البيت.

[2] ينظر: معروف، نايف، الخوارج في العصر الأمويّ– نشأتهم، تاريخهم، أدبهم، دار الطّليعة، بيروت، 1994م، ص58.

أن تتوحّد البطولات في رداء الـ "نحن" الخوارجيّة، مواجهةً الكفّار الذين اشتروا الدّنيا على العكس من "نحن" الخوارجيّة التي اشترت الآخرة بالدّنيا فربحت تجارتها كما ظنّوا.

يضمر النّسق في الأبيات السّابقة توظيفاً مخاتلاً للمرأة التي حضرت بوصفها بطلاً متمرّساً لا يفارق ساحات الوغى، جنباً إلى جنبٍ مع الرّجل. فـ "أمّ حكيم" لم تكن امرأة تقليديّة، أو موظّفاً شعريّاً مقتبساً من موضوعات الغزل التّقليديّة التي يبثّ فيها الشّاعر لواعج الشّوق والحرمان، بل هي رفيقة كفاحٍ له، تخوض معه المعارك، وتبلي بلاءً لا يقلّ شأناً عن بلاء الرّجال[1]. وعلى هذا وظّف الشّاعر الجماعة والمرأة لتنهض "أناه" الزّاهدة طالبة الآخرة لا الدّنيا.

لم يكتفِ الشّاعر بوصف خصومه بـ "الكفّار"، بل أباح لنفسهِ كلّ محرّماتهم متجاوزاً أدبيّات الإسلام وباكورة قيمه الإنسانيّة قبل اجتهاد المجتهدين في تحزيب الأحزاب وتفتيت الجسد الواحد. وعلى أيّة حال راح يصوّر صحبه وهم يطلبون الموتَ لا هرباً من الدّنيا بل اندفاعاً وسعياً لإرساخ قيم الحق والعدالة[2] التي أعلنتها أنساقهم في حين أضمرت عصبيّةً منغلقةً على الآخر. فها هو ذا فروة بن نوفل الأشجعيّ يكفّر عليّاً، ومعاوية، وحكميهما: ابن العاص، والأشعريّ، مسوّغاً ذلك بلجوئه إلى كتاب الله جاعلاً منه معيار الإيمان والضّلال، ليُسبغَ على نفسه وصحبه دائماً صبغة الإيمان أمام الخصوم الضّالّين، يقول[3]:

نُقَاتِلُ مَن يُقَاتِلُنَا وَنَرْضَى بِحُكْـمِ اللهِ لَا حُـكْمِ الرِّجَالِ

وَفَارَقْنَا أَبَا حَسَنٍ عَلِيَّاً فَمَا مِنْ رَجْعَةٍ أُخْـرَى اللَّيَالِي

فَحَكَّمَ فِي كِتَابِ اللهِ عَمْراً وَذَاكَ الأَشْعَرِيَّ أَخَا الضَّلَالِ

تبنّى الخوارج مذهباً دينيّاً صارماً، لم يرضَ أصحابه العدول قيد شعرة عن حرفيّة النّصّ الدّينيّ الذي لا يأتيه الباطل، ولذا فإنّهم كفّروا كلَّ من يحيد عنه. لقد طال تكفيرهم كثيراً من الصّحابة على اختلاف انتماءاتهم العقائديّة، فرأوا أنَّ من ليس معهم فهو ضدّهم، مهما اختلف توجُّهُهُ وانتماؤُهُ.

يرفع الأشجعيّ في هذه الأبيات شعار الخوارج المركزيّ، وهو: حكم الله لا حكم الرّجال، وهذا ما كلّفهم كثيراً من التّضحيات التي صوّرت بطَلَهم بوصفه بطلاً معارضاً مدافعاً عن الحقّ في متن ثنائيّة (الحقّ/الباطل)، فالخوارج أصحاب الحقّ، أمّا الخصوم فيناصرون الباطل، ولاسيّما أنّهم عدّوا حكمَي الأرض ضالَّين، فلاذوا بحُكْمِ

[1] ينظر: القطّ، عبد القادر، في الشّعر الإسلاميّ والأمويّ، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1979، ص379.

[2] ينظر: معيطة، د. أحمد، الإسلام الخوارجيّ، دار الحوار، اللّاذقية، ط1، 2000م، ص89.

[3] عبّاس، د. إحسان، شعر الخوارج، ص42.

إله السّماء، فوضعوا أنفسهم بين يدي الله إيماناً منهم بعدله، منزّهين عقيدتهم الثّوريّة التي – مع أنّها لم تعرف الاستقرار– حملت مُثلاً دينية[1] ترسّخت في سلوكيّاتهم وأدبيّاتهم في معلن النّسق الذي أضمر في الأبيات السّابقة حقّاً أُرِيدَ به الباطل؛ إذ لم يرتدع الشّاعر عن وصف خصومه المسلمين بالضّلال كما وصفهم سابقُه بالكفر، في انعكاس لمبدأ الخوارج الإقصائيّ في وجه كلّ مختلفٍ، فما الحال مع المخالف؟!

افتخر الشّاعر الخوارجيّ بنفسه وصحبه، فأظهرَ شجاعتهم، وشراستهم، وزهدهم، وصبرهم، ورفضهم الصلح مع خصومٍ كفرةٍ بكتاب الله. وهذه القيم مجتمعة جعلت الخوارجيّ ذا النّهج القلِق طالبَ حربٍ أكثر منه طالب سلمٍ، لأنّه كان لا يكاد يخرج من معركة إلّا ليقتحم ساحة أخرى. فكانت الشهادة مقصده، وهذا ما تؤكّده لفظة "الموت" ومصاحباتها اللّغويّة والدّلاليّة، التي تكثر في أشعارهم، إلى جانب البؤرة الثّقافيّة النّاسخة في أشعار الخوارج "فتية"، التي تؤكّد أنّهم كانوا شبّاناً، خرجوا على الخصوم في مقتبل العمر، بعد أن تعمّقت العقيدة الخوارجيّة في نفوسهم، فحمل النّسق المعلن صورة الخوارج طالبي أنموذجٍ للمثل الأعلى "المسلم" لا "الشّخص"، لتنسلّ عيوب الطغيان والظّلم والتّهميش من تحت هذه العباءة الملمَّعة.

أصبح "فتية" الخوارج صعاليكَ مرحلة التّحزّب الإسلاميّ، فقد أخذوا عن الصّعاليك صفاتهم الجسديّة التي أثّر فيها الصّبر والزّهد فنال منهم التّعب والإرهاق، وذلك كلّه في سبيل المكسب المعنويّ الذي سخّروا له أجسادهم ومادّيّاتهم المحسوسة. يقول أحد شعراء الخوارج مصوّراً أثر كثرة العبادة الماديّ في الجسد، وهو يرثي ثلاثة من رؤساء الخوارج الذين قُتلوا في آخر أيّام يزيد بن عبد الملك، وهم مصعب بن محمّد، ومالك بن الصّعب، وجابر بن سعد[2]:

فِتْيَةٌ تَعْرِفُ التَّخَشُّعَ فِيْهِـمْ كُلُّهُم حَـــــكَّمَ القُرْآنَ غُلَامَا

قَدْ بَرَى لَحْمَهُ التَّهَجُّدُ حَتَّى عَـــــادَ جِلْدَاً مُصفَّراً وَعِظَامَا

غَادَرُوهُم بِقَاعِ خُرَّةَ صَرْعَى فَسَقَى الغَيْثُ أَرْضَهُم يَا أُمَامَا

احتلّت قيمتا الصّبر والزّهد مكانة رئيسة في قائمة عتاد الرّاثي، بوصفهما من أبرز أسلحة الرّثاء، التي تسهم في رسم صورة المرثيّ، الذي قاسى العذاب وكابد الويلات في الدّنيا أملاً بنعيم الآخرة. فالخوارجيّ –إضافة إلى أنّه استهتر بالموت، وتحدّى الخطر، واستنزف طاقة الحياة[3]– أتقن برمجة ثنائيّة "المادّيّ/ المعنويّ" برمجةً ثقافيّةً استسهل من خلالها كبح جماح الشّهوات في سبيل نيل المراد السّامي.

[1] ينظر: معيطة، د.أحمد، الإسلام الخوارجيّ، ص58.

[2] عبّاس، د. إحسان، شعر الخوارج، ص196.

[3] ينظر: حجازيّ، أحمد عبد المعطي، قصيدة لا– قراءة في شعر التّمرّد والخروج، مؤسّسة الأهرام، القاهرة، 1989م، ص38.

وهذه الثّنائيّة بدورها فتحت باب ثنائيّة "البلاغيّ والأخلاقيّ" التي لم يكن الشّاعر الخوارجيّ وفيّاً لتقاليد مؤسّستها الثّقافيّة المبرمِجة والمبرمَجة التي تتيح للبلاغيّ أن يُقصي الأخلاقيّ، فالشّاعر الخوارجيّ، بعامّة، لم يكن طالب موقع ثقافيّ ممتطياً صهوة البلاغة المقنّعة، بل وظّف المعطيات الدّينيّة في ثوب بلاغيّ جماليّ، ليهذّب النّفوس ويشحذ الهمَم ويحفّز إخوان الطّريق على المضيّ إلى غايتهم، فعن الأبيات السّابقة يقول ابن خلكان: إنّها ((تشجّع أجبن خلق الله))[1].

تصوّر الأبيات الخوارجيّ الذي ينذر نفسه منذ طفولته لله، ثم يشبّ على ذلك، متدرّجاً في طقوس العبادة؛ فالغلام الخوارجيّ يُحكّم القرآن، ثمّ يتخشّع في فتوّته، إلى أن يقوى عوده، فيصبح قادراً على طول التّهجّد، ولذلك يفنى جسده في طقوس العبادة، فيُبرى لحمه وينحل جسده ويصفر جلده، متحدّياً بذلك نزوات النّفس التي قد تتعارض مع العقيدة، فإيمانه الرّاسخ بحسن الجزاء دفعه إلى اعتناق القيم والمثل الخوارجيّة، التي تلغي حاجات الجسد من طعام، وشراب، ونوم[2].

يخرج الفتى الخوارجيّ ليلاقي الخصوم "خصوم الدّين"، فيلقى حتفه وينال مراده "الشّهادة"، فيغدو –بعد أن كانت حياته موتاً– موته حياةً، بدليل دعاء الشاعر بالسّقيا بعد استشهاد أولئك الأبطال الذين عادلت دماؤهم غيثَ الأرض فنّيّاً: الدّماء= الغيث= الحياة.

ولكنّ النّسق يبقى وفيّاً في اللّاوعي لكثير من طقوس الفكر الشّعريّ المبدع، فها هو ذا العيزار بن الأخنس الطّائيّ يخرج بين الصَّفَّين يوم النهروان، ليرفع شعار الخوارج الأوّل، قائلاً[3]:

أَلَا لَيْتَنِي فِـي يَومِ صِفِّيْنَ لَمْ أَؤُبْ وغُودِرْتُ في القَتْلَى بِصِفِّينَ ثَاوِيَـا

ثَمَانُونَ مِنْ حَيَّيْ جَدِيْلَةَ قُتِّـــلُوا عَلَى النَّهْرِ كَانُوا يحضبون العَوَالِيا

يُنَادُونَ لا لا حُكْمَ إِلّا لِرَبِّـــــنا حَنَانَيْكَ فَاغْفِرْ حَوْبَنا والمَسَاوِيـــا

هُمُ فَارَقُوا فِي اللهِ مَنْ جَارَ حُكْمُـهُ وَكُلٌّ عَلَى الرَّحْمَنِ أَصْبَحَ رَاضِيَـــا

فَلَا وَإِلَهِ النَّاسِ مَا هَابَ مَعْشَـــرٌ عَلَى النَّهْرِ فِي اللهِ الحتُوْفَ القَوَاضِيا

وآَلُوا إِلَى التَّقْوَى وَلَمْ يَتْبَعُوا الهَوَى فَلَا يُبْعِدَنَّ اللهُ مَنْ كَانَ شَارِيَـــا

[1] ابن خلكان البرمكيّ الإربليّ، أبو العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمّد بن إبراهيم بن أبي بكر(–681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تح: د. إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، (د–ت)، 94/4.

[2] ينظر: معيطة، د.أحمد، الإسلام الخوارجيّ، ص103.

[3] عبّاس، د. إحسان، شعر الخوارج، ص32–33. الحوب: الإثم.

تحضر ثنائيّة "أنا/نحن" لتظهر الخوارجيّ المؤمن بالله والمذهب الخوارجيّ وبنسقيّة الشّعر الخاضعة لنسقيّة المجتمع وأنماط تفكيره التي أملت على الشّاعر صهر "أناه" في بوتقة الجماعة، كيف لا؟ والخوارجيّ قد تجرّد من مادّيات النّفس ليحقّق معنويّاتها، أفلا يضحّي بـ "أناه" لرفع كلمة جماعته؟

وُظِّفَت الـ "أنا" في سبيل الـ "نحن"، فالشّاعر تمنّى لو أنّه استشهد مع رفاقه الذين استشهدوا في صفّين بعد أن علا صوت الحق الذي رفعوه قولاً، وعلت أصوات أسيافهم في النهروان فعلاً، وذلك دفاعاً عن مبادئهم التي تلخّص الأبيات أهمّها؛ أي إرضاء الله بالخروج على الظّالم كما يعتقدون.

يحضر في معرض الدّعاء في الأبيات السّابقة ذكر اسم الله وصفاته الحسنى ستّ مرّات، وصولاً إلى طلب الشّهادة بلا خوف، في تسابق إلى حياة ما بعد الموت من دون أن "يتّبعوا الهوى"؛ فحربهم حرب مقدّسة تهدف إلى إقامة حكم الله وإعادة الحقّ إلى نصابه[1]، وهم شراة دين لا دنيا، يسترخصون أرواحهم فداءً لهدفهم، الذي سعوا إليه بنفوس تقيّة التزمت حرفيّة النّصّ.

تُظهِر الأبيات قيماً رئيسة شكّلت مرتكزات وثوابت لحزب الخوارج، ولا سيّما أنّ ولادتها تزامنت مع الخروج على عليّ (ع)، وبذلك فإنّ الخروج الدّينيّ اصطدم، في مطلعه، بالخصم الشّيعيّ الذي كان رحم احتضانه، قبل أن يرفض هذا المولود الانتساب إلى من حمله، فارضاً نفسه على السّاحة السّياسيّة، ليقوم بخروج سياسيّ على الأمويّين أيضاً، محوّلاً الحركة الخوارجيّة الدّينيّة إلى حركة سياسيّة بدأت تطالب بمكاسب ثقافيّة على المستويات السّياسيّة والاجتماعيّة، مدعومة بثوابت النّصّ، واجتهادات المجتهدين، وحماس الشّعراء المنافحين عن دعوتهم.

- **النّتائج:**

خلص البحث إلى النّتائج الآتية:

- حزب الخوارج حزبٌ قلقُ النّشأة والعقيدة والسّلوك ومن ثمّ الهويّة، فقد خرج أصحابه على الإمام الدّينيّ والخليفة السّياسيّ، وعليه غدا الشّاعر الخوارجيّ رائداً في تحوير المعطيات الإسلاميّة، ممتلكاً جرأةً سوّغت له اتّهام أيّ مسلم آخر بالكفر والضّلال لإظهار نفسه مؤمناً أوحداً، في نسقيّة أضمرت ما أضمرت من الرّجعيّة والعصبيّة التي أسّست لشرعيّة وصف الخوارج بالآباء النّسقيّين لحركات التّطرّف، فهم حملة توجّه دينيّ متطرّف؛ راديكاليّ أو مُغالٍ، أساسُه نسق ثقافيّ "خوارجيّ" ناسخٌ، تبنّى حملَ راية النّصّ القرآنيّ من دون فهم جوهره، أو وعي مناسبته الموقفيّة الزّمكانيّة.

[1] ينظر: معروف، نايف، الخوارج في العصر الأمويّ– نشأتهم، تاريخهم، أدبهم، ص259.

- حملت المضمرات النّسقيّة في أشعار الخوارج صعلكةً أيديولوجيّة مقنّعة، معدَّلةً على وفق منظومة القيم التي تبنّوها؛ إذ ولّدَ نسق الإيمان عندهم منظومة قيميّة خوارجيّة أعلوا فيها قيم الصّبر والزّهد والتّضحية والجهاد، ولكنّهم في المضمر شرّعوا التّطرّف، والظّلم، والعنف، واستباحة الآخر، وإقصائه، خلف عباءة الوسائل البلاغيّة التي صوّرتهم مُثلاً عليا في التّضحية.
- لم يكن الشاعر الخوارجيّ، بعامّة، طالبَ موقع ثقافيّ، فقد خرج أصحابه على الخصوم في مقتبل العمر، بعد أن تعمّقت العقيدة الخوارجيّة في نفوسهم، فأخذتهم صبوة الشّباب وعنفوانه، محاولين إرساخ ديمقراطيّة إسلاميّة تحيد عن الشّخصنة وتمجيد الأنموذج المتناسخ ثقافيّاً كما فعل الأمويّون بصورة "الخليفة وولاة عهده"، والشّيعة بصورة "الإمام عليّ وبنيه"، والزبيريّون بصورة "عبد الله بن الزّبير وأخيه". ولذلك شكّل شعرهم حالةً براغماتيّة جعلته مادة خصبة على المستوى التّوثيقيّ التّسجيليّ التّاريخيّ لا الفنّيّ.

المراجع•:

- ***القرآن الكريم.***

1- ابن خلكان البرمكيّ الإربليّ، أبو العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمّد بن إبراهيم بن أبي بكر(-681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تح: د. إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، (د-ت)، ج4.

2- إسماعيل، عزّ الدّين، التّفسير النّفسيّ للأدب، مكتبة غريب، القاهرة، ط4، (د-ت).

3- البغداديّ، عبد القاهر (- 429هـ)، الفَرق بين الفِرق، تح: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، مطبعة المدنيّ- القاهرة (د - ت)، ط2.

4- البكريّ الأندلسيّ، الوزير الفقيه أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ت487هـ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تح: جمال طلبة، دار الكتب العلميّة، بيروت، المجلّد الأوّل 1-2، ط1، 1998م.

• عُدَّت ألف كلمة "ابن" ضمن التّرتيب الألفبائيّ.

5- بيضون، د. إبراهيم، ملامح التّيّارات السّياسيّة في القرن الأوّل الهجريّ، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1979م.

6- حجازيّ، أحمد عبد المعطي، قصيدة لا- قراءة في شعر التّمرّد والخروج، مؤسّسة الأهرام، القاهرة، 1989م.

7- الخليل، د.سمير، دليل مصطلحات الدّراسات الثّقافيّة والنّقد الثّقافيّ- إضاءة توثيقيّة للمفاهيم الثّقافيّة المتداولة، مراجعة وتعليق: د.سمير الشّيخ، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د-ط)، (د-ت).

8- زرنه جي، عبد اللّطيف، المثل العليا والواقع، مجلة المعرفة، العدد376، السنة الثالثة والثلاثون، كانون الثاني 1995م.

9- الطّبريّ، أبو جعفر محمّد بن جرير، تاريخ الرّسل والملوك، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2، 1971م، ج4+5.

10- عبّاس، د. إحسان، شعر الخوارج، دار الثّقافة، بيروت، ط2، 1974م.

11- القاضي، د. النعمان، الفرق الإسلاميّة في الشّعر الأمويّ، دار المعارف، مصر، (د-ت)، (د-ت).

12- القطّ، عبد القادر، في الشّعر الإسلاميّ والأمويّ، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1979م.

13- الكيلانيّ، د. نجيب، الإسلاميّة والمذاهب الأدبيّة، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، 1987م.

14- معروف، نايف، الخوارج في العصر الأمويّ- نشأتهم، تاريخهم، أدبهم، دار الطّليعة، بيروت، 1994م.

15- معيطة، د.أحمد الإسلام الخوارجيّ، دار الحوار، اللّاذقية، ط1، 2000م.

16- النّجّار، عامر، الخوارج عقيدة وفكراً وفلسفة، مكتبة المقدسيّ، بيروت، ط1، 1996م.

Reference:

- The Holy Quran.

1- Ibn Khallikan al-Barmaki al-Irbali, Abu Abbas Shams al-Din Ahmad ibn Muhammad ibn Ibrahim ibn Abi Bakr (681 AH), Deaths of Notables and News of the Sons of Time, ed.: Dr. Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut, (D-T), vol. 4.

2- Ismail, Ezz al-Din, The Psychological Interpretation of Literature, Gharib Library, Cairo, 4th edition, (D-T).

3- Al-Baghdadi, Abd al-Qahir (- 429 AH), The Difference Between the Sects, ed.: Muhammad Muhyi al-Din Abd al-Hamid, Al-Madani Press - Cairo (D-T), 2nd edition.

4- Al-Bakri Al-Andalusi, Minister and Jurist Abu Ubaid Abdullah bin Abdul Aziz, d. 487 AH, Dictionary of the Names of Countries and Places, ed.: Jamal Tolba, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, First Volume 1-2, 1st Edition, 1998 AD.

5- Baydoun, Dr. Ibrahim, Features of Political Currents in the First Century AH, Dar Al-Nahda Al-Arabiyya, Beirut, 1979 AD.

6- Hegazy, Ahmed Abdel Moati, Poem No - A Reading of the Poetry of Rebellion and Exodus, Al-Ahram Foundation, Cairo, 1989 AD.

7- Al-Khalil, Dr. Samir, Guide to Terminology of Cultural Studies and Cultural Criticism - Documentary Illumination of Current Cultural Concepts, Review and Commentary: Dr. Samir Al-Sheikh, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, (D-T), (D-T).

8- Zarna Ji, Abdul Latif, Ideals and Reality, Al-Ma'rifa Magazine, Issue 376, Thirty-Three Year, January 1995 AD.

9- Al-Tabari, Abu Jaafar Muhammad bin Jarir, History of the Messengers and Kings, ed. Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, Dar Al-Ma'arif, Egypt, 2nd edition, 1971 AD, vol. 4+5.

10 - Abbas, Dr. Ihsan, Poetry of the Kharijites, Dar Al-Thaqafa, Beirut, 2nd edition, 1974 AD.

11- Al-Qadi, Dr. Al-Numan, Islamic groups in Umayyad poetry, Dar Al-Maaref, Egypt, (D-T), (D-T).

12- Al-Qat, Abdul Qadir, in Islamic and Umayyad Poetry, Dar Al-Nahda Al-Arabiyya, Beirut, 1979 AD.

13- Marouf, Nayef, The Kharijites in the Umayyad Era - Their Origins, History, and Literature, Dar Al-Tali'ah, Beirut, 1994 AD.

14- Al-Kilani, Dr. Najib, Islamicism and Literary Schools, Al-Resala Foundation, Beirut, 1987 AD.

15- Maita, Dr. Ahmed Al-Islam Al-Khawarji, Dar Al-Hiwar, Latakia, 1st edition, 2000 AD.

16- Al-Najjar, Amer, The Kharijites: Doctrine, Thought, and Philosophy, Al-Maqdisi Library, Beirut, 1st edition, 1996 AD.

The Systematicity Of Faith In The Poetry Of The Kharijites

•Dr. Rbah Ali

* Dr. Azdasher Hitham Nassour

Abstract

It is important to mention that external poetry left a clear impact on the core of the Umayyad culture, which was fragmented religiously, politically and socially, especially since its authors played on the most sensitive strings, which is the religious string whose data they programmed according to their radical ideology that adhered to the literalism of the religious text, in a way that allowed them to deify others and exclude them from the circle of faith. Which they singled out for themselves and not other segments of Umayyad society and its conflicting parties.

Accordingly, the declared pattern carried the belief of the Kharijites and their keenness to adopt the moral values hovering in the orbit of faith, such as patience, asceticism, and the pursuit of martyrdom and the promised Paradise. However, the implicit pattern slipped into the subconscious influencing the poetic consciousness to exercise its influence, cloaked in the veil of eloquence and apparent poetic aesthetics, and the data of extremism, tyranny, and marginalization of all "others" were present. "It differed from the external approach that searched for an identity that carried anxiety and dialectic throughout the external party's path, with the problematic origins, doctrine, and behavior, his companions did not accept any "other," turning their disagreement with him into a dispute, making this other a direct opponent, under the slogan: If you are not with us, then you are our opponent, omitting the value of tolerance from their intellectual and life approach.

Keywords: The Implicit System, The Kharijites, Faith, Atonement , Exclusion.

• Lecturer in the Arabic Language Department - Tishreen University

Doctorate in Arabic Language and Literature
-Faculty of Arts and Humanities-Tishreen * University-Lattakia-Syria. azdasher.nassour@tishreen.edu.sy